

((تحفة الملك العزيز بمملكة باريز))

هـي أدب الرحلات

للسفير إدريس بن إدريس العمراوي

تقديم وتعليق د. زكي مبارك

عرض د. مصطفى محمد العبدالله

لم يكن ابن بطوطة المغربي الوحيد الذي تجول في مختلف أصقاع العالم ودخل
أقاصي بلاد المشرق ومجاهل إفريقيا وظلت لنا أخبار أسفاره بفضل عناية
ابن عنان الذي أمر بجمع هذه الأخبار وتصنيفها. كما أن هناك العديد من
الذين سافروا وتجولوا في أصقاع العالم لأسباب متعددة، وقد صنف الأستاذ محمد الفاسي
هذه الرحلات إلى حجازية، وسياحية، ودراسية، وأثرية، واكتشافية، وزيارية، وسياسية
ومقامية، وقبالية، وفهرسية، وسفارية، وحول هذا الصنف الأخير من الرحلات، إلى
رحلات السفراء، يوضح لنا الأستاذ الفاسي: (برز المغاربة في هذا النوع من الرحلات،
ولم يؤلف أحد من العرب بقدر ما وضع المغاربة من رحلات سفارية وكلها كتبت في
العصور الحديثة أي ابتداء من السعديين).

وتعد رحلة رفاة الطهطاوي إلى فرنسا من أهم رحلات الأدب التي نجم عنها وثائق أدبية
وإنسانية كان لها الأثر العظيم في تطور الفكر العربي الحديث. وكان الطهطاوي أول مؤلف عربي
في العصر الحديث يكتب عن أوروبا ويكشف القناع عن محيا هذه البقاع.

لقد أقام الطهطاوي في الديار الفرنسية نحو خمس سنوات للدراسة والتتقف والاطلاع. وقد نالت
رحلة الطهطاوي إلى فرنسا عناية وشهرة ومجداً لكونها ترتبط بمكانة الطهطاوي العلمية والأدبية في
مصر النهضة، وما حظيت به رحلته من عناية وتقدير من السلطة الحاكمة في مصر وخاصة من
محمد علي الذي اطلع على ما ألفه وكتبه الطهطاوي، فأعجب به وأمر بترجمته إلى التركية والعربية
وطبعها باللغتين وتوزيعها بعد طبعها على الدواوين والوجوه والأعيان، والاستفادة منها في المدارس
المصرية. وقد تم طبعها في مطبعة بولاق عام 1934. ونذكر منها المؤلف الشهير ((تخليص الإبريز

في تلخيص باريز)).

وتم تصنيف رحلة السفير المغربي ابن إدريس العمراوي صاحب ((تحفة الملك العزيز بمملكة باريز)) وما نتج منها من فكر وأدب من أدب الرحلات الذي كان له أثر كبير في التبادل الثقافي بين الأوروبيين العرب. فقد أقام فيها فترة قصيرة لا تتجاوز الأربعين يوماً، ولكن السفير خلال هذه المدة القصيرة استطاع أن يتغلغل داخل المجتمع الفرنسي وتعرف العديد من جوانب الحياة فيها لينقلها لنا خلال كتابه ((تحفة الملك العزيز بمملكة باريز)) الصادر عن مؤسسة التغليف والطباعة للشمال في المملكة المغربية، حيث قام بالتقديم له والتعليق عليه الأستاذ الباحث بالمعهد الجامعي للبحث العلمي في جامعة محمد الخامس - المغرب، الدكتور زكي مبارك.

يتكون الكتاب من 126 صفحة من القطع المتوسط، ويشتمل على توطئة، ثم تقديم حول الإطار التاريخي للرحلة وتعريف بالسفير إدريس بن إدريس العمراوي. ثم تبدأ تحفة الملك العزيز بمملكة باريز فيعرض المؤلف لنا موضوع الرحلة منذ التحضير لها والإقلاع من ميناء طنجة وكيفية السفر والوصول إلى مرسيلية، ويقدم لنا وصفاً لميناء مرسيليا والمدينة بكاملها.

ثم يصف القطار والسكة الحديدية، ثم السفر من مرسيلية إلى مدينة ليون، ويخصص قسماً لابأس به للحديث عن هذه المدينة. ثم يتحدث المؤلف عن إقامته في باريس ((مقام ابن إدريس في باريس))، فيصف هذه المدينة خلال الحديث عن جنات النباتات والوحوش (حديقة الحيوان). ثم وصف لنا دار السلاح ودار الضرب، ودار الطباعة، ودار السلع والأثاث، ودار العسكر العاجز، (وصراية مدينة فرساي). كما أفرد المؤلف بحثاً حول التجارة في هذه المدينة، وتحدث عن مقابلته للامبراطور نابليون الثالث ووزرائه والعسكر وكيفية تكوينه. بعد ذلك تحدث المؤلف عن رحلة عودته إلى المغرب. ويتضمن الكتاب أيضاً "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" باللغة الفرنسية وعدد صفحاتها 77 صفحة من القطع المتوسط.

وقد ورد في الكتاب بعض الأشعار منها:

أميل إلى الشكل الظريف إذا بدا
أمتع طرفي فيه ثم اردد
وما مقصدي فعل القبيح وإنما
أشاهد صنع الله ثم أوحده

ميناء مرسيلية: عندما وصل السفير العمراوي إلى مرسيلية وصفها قائلاً:

"... وهذه المدينة كبيرة تقارب مدينة فاس في الكبر، وهي بلاد تجارة وباب إقليم فرنسا. ولها مرسيان شرقي وغربي فيهما المراكب ما يزيد على الثلاثمائة، والمرسى كالخليج الراكد يشق وسط المدينة حتى إن بعض المراكب تدخل حتى ترسي أمام حانوت صاحبها أو داره، فنقل السلع من المركب للدار أو الحانوت من غير وساطة، وشوارعها متسعة، وأبنيتها عالية متقنة.... وفي وسط المدينة محال متسعة فيها أشجار كبار لا ثمر لها يستظل بها السائرون والمتفرجون تحتها

كراسي للجلوس وقهاوي وحوانيت تباع فيها الفواكه والحلوي) ص 44

ويصف المؤلف القطار والسكة الحديدية قائلاً (وهي من عجائب الدنيا التي أظهرها الله في هذا الوقت على أيديهم تحرير فيها الأذهان ويجزم الناظر إليها بديهة أن ذلك من فعل الجان وأنه ليس في طوق إنسان) ويصف لنا قاطرة القطار وصفاً دقيقاً وتفصيلاً.

ويقارن بين القطار والوابور (البخارة). ثم يتابع وصف رحلته من مرسيليا إلى مدينة ليون فيخصص لها حيزاً ويصفها قائلاً:

مدينة ليون: (وهي مدينة كبيرة أكبر من مرسيليا بكثير ولكنها مائلة للبداءة وأهلها أهل حرف، وصنائع، وفيها الفابريكات التي تخدم فيها الثياب الحريرية والقطنية التي تجلب من أرض الفرنسيين ويستعملونها ولا يخدم في غيرها من ذلك إلا القليل.... وهذه المدينة بين جبال صغار محيطة بها وبعض بنائها في الجبل. وقد ذكروا لنا أن أهلها أهل انحراف عن الدولة وخروج عليها، فلا يمر زمان إلا ولهم فيه ثورة.

وأرض الفرنسيين معروفة عند النصاري بكثرة الخمر وجودتها وكانت صحفهم تقتخر بذلك على الإنكليز فيذكرون: (إننا نبيع للإنجليز الخمر الذي يخرج من عنب بلادنا فنبخسهم لأننا نأخذ فيه ما لهم وعقولهم).

إقامة ابن إدريس في مدينة باريس:

وعندما وصل السفير العمراوي إلى مدينة باريس وصفها قائلاً: (وهذه المدينة كبيرة جداً من أكبر مدن الدنيا يقال: إن أعظم مدن الدنيا ثلاثة: قسطنطينية العظمى التي هي اصطنبول، حرسها الله وعمرها بدوام ذكره، والوندريز "المقصود بها لندن" وهي قاعدة ملك الإنجليز وهذه، على الفرنسيين يزعمون أن هذه المدينة أكبر من هاتين. أما أنا فلا أقدر أن أصف كبرها ولم أكن أظن أن في الدنيا مدينة قبل أن أراها مثل ذلك. وقد رأيت في مصر القاهرة وسلكت أكثر طرقها.... فقدرت أنها أكبر من مدينة فاس بأربع مرات وأظن أن هذه أكبر من مصر بثلاث مرات، فتأتي على هذا أنها أكبر من فاس باثنتي عشرة مرة.) ثم وصف المؤلف المساكن في باريس وعادات الأكل والشراب فيها وشوارع المدينة ونظافتها وحركة السير فيها ثم وصف لنا حديقة الحيوانات التي سماها جنان النباتات والوحوش وما تحتويه من أنواع الحيوانات والطيور والزواحف والأسماك وغيرها. وقد وصف لنا المؤلف دار السلاح التي تعد متحفاً حربياً يجمع فيه كل أنواع الأسلحة مع تطورها. وكذلك وصف دار السكة، وهي المكان الذي يتم فيه سك النقود المعدنية. كما وصف أيضاً دار الطباعة دار الكتب، وقصر فرساي والمسارح والألعاب التي كانت تتم فيها. كما تحدث عن عادات أهل باريس ومنها أن المرأة هي رئيسة البيت والرجل تابع لها، ويورد مثلاً باريسياً إذ يقول: "باريز جنة النساء وجهنم الخيل"، ويصف المؤلف مدينة باريس بالمدينة التجارية إذ يقول: (وأكثر تكسب أهل هذه المدينة من التجارة. والتجار عندهم معتبرون اعتباراً زائداً، وهم ركن من أركان الدولة، وكلما زاد مال الرجل

